

## ABDUL İLAH İBN ARAFA'NIN : "YASIN KALB-U L-HILAF" İRFANI ROMANINDAKİ SANATSAL HAYAL İLE SUFİ VİZYON KARŞILAŞTIRMASI

**Lecturer Professor Dr. Nadjat BOUKEZZOULA**

M'Hamed BOUGARA University, Boumerdes, Algeria

[n.boukezzoula@univ-boumerdes.dz](mailto:n.boukezzoula@univ-boumerdes.dz) ORCID : 0009-0007-5127-8941

### Öz

Bu araştırmada sufi mirası, dili ve vizyonuna uygun bir şekilde canlandırıp, toplu tarihte olan eski olayları özgün görüşle sunmaya gayret eden yeni tür nesir dini otoriteye sahip olan İrfan romanı yaklaşımına amaçlamaktayız. İnceleme amacıyla Abdul İlah Bin Arafa'nın "Yasin kalb-u Lhilafa" romanını örnek olarak seçilmektedir.

Sufi, tarih, siyer birbirlerine bağlayan bu romanın konusu Osmanlı devleti en ünlü ve en muazzam padişahlarından biri olan II. Abdülhamid'in hayatından sağlanarak, 33 yıllık hüküm süresi içinde devletin birliğini korumak, mason kompluları ile sömürü güçleri tarafından çevirilen fırıldakların karşısında dik durmakla geçirdiği hayatının kahramanca detaylarını göstermektedir. Yazar da sonradan halifeliğin düşüşüne sebep olacak olayları, II. Abdülhamid'in engellemeye çalışması ile padişah şeyhi Zafir El-Medeni sayesinde gerçekleştirilen ilahi feyiz aralarında dikkatlice bağ kurmaya çalışmaktadır. Böylelikle II. Abdülhamid'in Yasin suresine tutulması, hüküm ve kararlarında surenin barındırdığı öğretilerine göre hareket etmesi ve halifeliği kurtarmaya hedefleyen islami cami-i projesinde destekleyen, dahili ve harici hakimiyetin amacına ulaştıracak Derkavi tarikatına yönlendiren şeyhiyle arasındaki ilişkisi olmak üzere iki iş itibarla Sultan'ın ruhi yanına romanda yer verilmektedir. Bundan hareketle romanda halifeliğin islamiyetine işaret edilmesiyle birlikte irfan vizyonu, sufi diliyle de sıkça rastlanır. Okuyucu tarih ve mirasıyla kavuşturup, tutum ve davranışlarını arıtmış yeni bir edebi projesi meydana getirilmiştir. Yineden kalkınma ve birleştirme dayanaklarına sahip olan islami uygarlığının medeni ve evrensel yapımı katkıda bulunması ele alınmıştır.

**Anahtar Kelimeler:** Roman, İrfan vizyonu, Yasin kalb-ü L-KHilafa, Abdül İlah Bin Arafa.

### THE MYSTICAL NOVEL BETWEEN ARTISTIC FICTION AND SUFI VISION THE NOVEL: "YASSIN QALB AL-KHILAF" BY ABDELILAH BEN ARFA AS A MODEL

### Abstract

This research paper aims to approach the mystical novel as a new narrative genre with a nodal reference, invoking Sufi heritage and aligning with its vision and language. It seeks to revisit previous issues that occurred in the course of collective history. We chose the novel "Yassin Qalb al-Khilafah" li-Abd al-Ilah ibn 'Arafah as a model for the study. The novel combines biography, history, and Sufism, drawing its subject from the life of Sultan Abdul Hamid II, one of the most famous and greatest caliphs of the Ottoman Empire. The novel recalls epic details of the life of this remarkable Sultan, who spent thirty-three years striving to preserve the nation's unity and confront Masonic conspiracies and colonial powers that plotted to eliminate the caliphate. The novelist sought to link these dramatic events, which later ended the caliphate, and Sultan Abdul Hamid II's attempt to confront them with the divine revelations granted to the Sultan through his guide and mentor, Zafir Al-Madani. The novelist emphasized the spiritual aspect of Sultan Abdul Hamid II through two main elements: first, his attachment to Surah Yassin and his governance guided by its teachings, using it as a protective shield for the caliphate. Second, his relationship with his mentor, who supported him in his project to establish the Islamic University to save the caliphate, guided him on the Tariqah Darqawiya until he achieved the secret of the exoteric and esoteric caliphate. Thus, the mystical vision and Sufi language prevailed in the novel, clearly indicating the Islamic nature of the caliphate. The novel lays the foundation for a new literary project that refines the reader's behavior, connects them with their memory and heritage, and highlights the contribution of Islamic civilization to universal civilization-building and its possession of the elements of unity and revival.

**Keywords:** The Novel- Sufi Vision- Yassin Qalb Al-Khilafah- Abdelilah Ben Arfa.

### الرّواية العرفانية بين التّخييل الفنّي والرّواية الصّوفية "رواية: ياسين قلب الخلافة" لعبد الإله بن عرفة أنموذجاً

الملخص:

نروم في هذا البحث مقارنة الرّواية العرفانية وهي نوع سردى جديد ذو مرجعية عقديّة، يستحضر التّراث الصّوفى ويتماهى مع رؤيته ولغته، ويسعى إلى إعادة طرح قضايا سابقة وقعت في مجرى التاريخ الجماعى برؤية متفردة، وقد اخترنا رواية: "ياسين قلب الخلافة" لعبد الإله بن عرفة أنموذجاً للدراسة، وهي رواية جمعت بين السّيرة والتّاريخ والتّصوف، حيث استمدّت موضوعها من سيرة السّلاطان عبد الحميد الثّانى وهو أشهر خلفاء الدّولة العثمانية، حيث استعادت الرّواية تفاصيل ملحمة من حياة هذا السّلاطان الذّاهية الذي دامت مدّة حكمه ثلاث وثلاثين سنة قضاها في النّضال من أجل الحفاظ على وحدة الأمتة، ومواجهة مؤامرات الماسونية والقوى الاستعمارية التي نصبت المؤامرات والمكائد من أجل القضاء على الخلافة، وقد سعى الرّوائي إلى الرّبط بين هذه الأحداث الدّرامية التي أنهت الخلافة لاحقاً ومحاولة السّلاطان عبد الحميد الثّانى التصدّي لها، وبين فتوحات الفيض الإلهي الذي تحقّق للسّلاطان بفضل شيخه ظافر المدني، ربطاً في غاية الدّقة والانسجام، إذ عمد الرّوائي إلى إبراز الجانب الرّوحي للسّلاطان عبد الحميد الثّانى والذي تجسّد في الرّواية من خلال أمرين أوّلاً؛ تعلّقه بسورة ياسين واهتدائه في حكمه بما تضمّنته من تعاليم، واتّخاذها ورداً حافظاً للخلافة، ثانياً؛ العلاقة التي تربطه بشيخه الذي ساندته في مشروعه الجامعة الإسلامية من أجل إنقاذ الخلافة، كما أرشده ودلّه على الطّريقة الصّوفية "الدرقاوية" حتّى تحقّق له سرّ الخلافة الظّاهرية والباطنية، من ثمّ غلبت على الرّواية الرّواية العرفانية ولغتها الصّوفية في دلالة واضحة على إسلامية الخلافة، لتوصّل الرّواية لمشروع أدبي جديد يهدّب سلوك القارئ ويصله بذاكرته وتراثه، ويبرز مساهمة الحضارة الإسلامية في البناء الحضاري الكوني وامتلاكها مقومات الوحدة والتّهوض من جديد.

الكلمات المفتاحية: الرّواية -الرّواية الصّوفية - ياسين قلب الخلافة -عبد الإله بن عرفة.

#### 1. مقدمة:

كثيرة هي الرّوايات العربية المعاصرة التي انفتحت على التّراث الصّوفى ووظّفت في بنائها السّردي مصطلحات الصّوفية ورموزهم، وذكرت كبار الشّخصيات التي أسهمت في التّأصيل لخطاب العرفان في التّراث العربي القديم ومن بينها نجد رواية كتاب الأسفار الثلاثة لجمال الغيطاني، وسابع أيام الخلق لعبد الخالق الركابي، وجارات أبي موسى لأحمد التّوفيق، وتلك المحبّة للحبيب السّابح، ولكنّ هذه الرّوايات على الرّغم من توظيفها مصطلحات صوفية، فقد غلبت عليها الرّواية السردية

دون الرؤيا الصّوفية، وحافظت فيها على قضايا النّوع والتّسمية. ويعدّ عبد الإله بن عرفة، أحد أهمّ الكتاب الذين عنوا بالانفتاح على الخطاب الصّوفي من حيث اللّغة والرّوایا، وأسس لنوع أدبي جديد أصبح يعرف بالرّواية العرفانية، وتعدّ رواية ياسين قلب القرآن إحدى أهمّ الرّوايات التي تندرج ضمن هذا النّوع السّردي الجديد، وانفتح فيها على التّاريخ والتصوف، حيث استمدّ موضوعها من سيرة الخليفة العثماني عبد الحميد الثّاني، وركّز فيها على موضوع الخلافة من منظور صوفي مازجا بين التّخييل السّردي والخطاب العرفاني. من هنا نتساءل؛ ما الرّواية العرفانية وما هي مرجعياتها النّصّية؟ وإذا كان التصوّف طريقة خاصّة في العبادة وكانت الرّواية نصّا إبداعيا ينزح إلى التّخييل، كيف استطاع الكاتب أن يمزجها في بوتقة واحدة؟ وهل حقّق التّناسب بين المبنى الحكائي والتمن الحكائي في روايته موضوع مقاربتنا؟

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة من الجذير بالذّكر التّنويع ببعض الدّراسات السّابقة والتي تعكس تزايد الاهتمام بالرّواية العرفانية عند عبد الإله بن عرفة، وهي دراسات جادّة حاولت أن تتقصّى هذه التّجربة المتفرّدة من بينها؛ دراسة للباحثين بغداد بردادي ولعروسي قادة موسومة بـ "مرجعيات تماهي الخطاب الصّوفي في الرّواية العرفانية قراءة تأويلية في ياسين قلب الخلافة لعبد الإله بن عرفة" (بردادي و عروسي ، 2022، الصفحات 163-208) وهي مقارنة تأويلية للرّواية اقتصرت على تأويل عتبات النصّ وإمطة اللّثام عن التّناقضات الضدّية ونظام التّقابل بين الشّخصيات في الرّواية، وغير بعيد عن هذه الدّراسة مقال موسوم بـ خطاب العتبات في رواية ياسين قلب الخلافة لعبد الإله بن عرفة للباحث مؤيد أحمد الشّرة (الشّرة، 2022، الصفحات 123-208)، كما قدّم الباحث دباح جمال مقالا موسوما بـ الرّواية العرفانية عند عبد الإله بن عرفة مشروعية الحدود (ذباح، 2020، الصفحات 47-54)، وهو عبارة عن بحث نظري تتبّع فيه صاحبه نشأة الرّواية العرفانية وارتباط اسم ابن عرفة بهذا النّوع الجديد ووقف عند بعض المفاهيم كالعرفان، وكذا قدّمت الباحثة سليمة عشو بحثا موسوما بالسّير في الكتابة العرفانية الرّوائية عند عبد الإله بن عرفة (عشو، 2021، الصفحات 183-200)، وقد قصرت الباحثة فيه مقاربتها على معرفة كيفية نقل تجربة السّير من خلال الكتابة العرفانية عند الرّوائي بن عرفة من خلال عدّة روايات للكاتب .

وتبقى هذه الدّراسات مبادرات تحتاج إلى مزيد من الدّرس والبحث المعمّق، من أجل تحقيق التّراكم المعرفي الذي من شأنه أن يواكب هذا النّوع السّردي الجديد ويتبّع تطوّر الرّواية العرفانية ويكشف عن خباياها وأسرارها وجمالياتها، ويستخرج مكنوناتها، ولأنّ النصّ كما يرى أميرتو إيكو منفتح على عدّة تأويلات، فإنّ بحثنا هذا وإن تقاطع مع بعض الدّراسات السّابقة من حيث المدوّنة أو من حيث انفتاح الرّواية على التّراث الصّوفي إلا أنّنا سعيينا أن نقدّم قراءة معمّقة للرّواية نسلط فيها الضّوء على بعض الخصائص الفنّية والرّوایا العرفانية التي وسمت رواية (ياسين قلب الخلافة) – والتي أغفلتها الدّراسات السّابقة أو وقفت عندها باقتضاب كقضية توظيف الرّمز الصّوفي وجماليات اللّغة العرفانية في رواية ياسين قلب الخلافة، وكذا علاقة الشّيخ بالمريد في الرّواية و إمطة اللّثام عن مفهوم الإنسان الخليفة وفق الرّوایا العرفانية وكيفية استثمار الكاتب لهذا المفهوم العرفاني بطريقة مشوّقة .

## 2. مفهوم الرّواية العرفانية:

أطلق عبد الإله بن عرفة مشروع الرّواية العرفانية من خلال بيانات توضيحية صدر بها رواياته الثّمانيّة؛ روايته الموسومة بـ " جبل قاف" صدرت عام (2002)، وروايته المعنونة بـ "بحر نون" كتبها عام 2007، وروايته "بلاد صاد" نشرت عام 2007، وكذلك رواية "الحواميم" عام 2010م، وروايته "طواسين الغزالي" صدرت عام 2011م، ورواية " ابن الخطيب في روضة طه" عام 2012م، ورواية " ياسين قلب الخلافة" - موضوع مقاربتنا- التي صدرت 2013م، و روايته "طوق سرّ المحبّة، سيرة العشق عند ابن حزم" التي نشرت عام 2015م، وقد بنى الكاتب تصوّره للرّواية العرفانية على ثلاثة مفاهيم :

مفهوم الكتابة بالنور حيث ارتبطت هذه التسمية بمشروعه السردى الجديد كما جاء في أحد بياناته، أكد فيه أن رواياته " تستمد أساسا من الحروف النورانية المقطعة في بعض فواتح السور التي تجمع في كلام "حق نصره سطع" (بن عرفة، 2007، صفحة 9).

ومفهوم أدب الحضور، ويعني بالحضور "ما يحدث للصوفي المداوم للذكر من غيبة عن كل ما سوى الله، والحضور بالله وعن ذلك يقول عبد الإله بن عرفة: إن المداومة على الذكر يؤدي إلى الحضور وهو يثمر العلم الذي يزج بصاحبه في الغيبة عن كل ما سوى الله، وهو عين الحضور بالله، هذا المعنى كما دأبنا على ذلك في أعمالنا السابقة، ولعل أفضل عنوان لهذا المشروع هو أنه أدب الحضور" (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 7)

أما المفهوم الثالث فهو الرواية العرفانية وهو الأكثر رواجاً والأكثر قرباً من توصيف هذا النوع، فقد سئل عبد الإله بن عرفة عن سبب اختيار هذا المصطلح دون غيره، فقال: إن الهدف من السفر والسلوك إلى حضرة القرب هو طلب المعرفة، وأن طالب المعرفة يسمى عارفاً، فكان لزاماً أن تكون هذه الرواية عرفانية" (الواردي، 2015، صفحة 54) سميت الرواية العرفانية إذن نسبة إلى المعرفة التي تحصل للسالك في التجربة الصوفية، والعرفان هو "العلم بالحق سبحانه وتعالى وصفاته ومظاهره، وهو أيضا العلم بالمبدأ والمعاد، وحقائق العالم" (العامللي، 2004، صفحة 6)، ويرجع عبد الإله بن عرفة أنه وفق في اختياره لهذا المصطلح نظراً لرواجه بين القراء والتقاد، وينفي الكاتب أن يكون العرفان في هذا النوع السردى الجديد يتطابق مع العرفان الغنوصي.

ولئن كان هذا هو سبب تسميته، فما هو الهدف الذي يتغياه الكاتب من وراء هذه الكتابة؟

إن الرسالة التي يسعى الكاتب عبد الإله بن عرفة إلى إيصالها من خلال هذه الرواية الجديدة هي إعادة الوصل مع الموروث الحضاري الإسلامي والثقافي والعرفاني واستحضاره ببعث الحياة فيه "من خلال تقنية سردية طبعت رواياته النورانية بمبسم التفرد حين قرّر أن يفتتحها بالحروف المتقطعة في القرآن الكريم وعن ذلك يقول: "إنني أروم من وراء هذه الكتابة إعادة بناء التاريخ العربي الإسلامي الذي مرّ عليه أربعة عشر قرناً، انطلاقاً من الفواتح النورانية الأربع عشرة وأسعى لأخصص لكل فاتحة من هذه الفواتح النورانية أو قرناً أو فترة زمنية وقامة فكرية وروحية بصمت على هذا التاريخ الطويل وفي المحصلة الأخيرة سنشكل روايات هذا المشروع موسوعة حضارية وروحية وعرفانية للحضارة العربية الإسلامية ومساهمتها البارزة في البناء الحضاري الكوني وهذا المشروع يردّ مفهوم القطيعة ويرفضها." (الواردي، 2015، صفحة 56) إذن يوضح الكاتب رؤيته المتفردة حول الأدب ورسالته، مؤكداً أن هدفه المنشود من وراء هذا المشروع السردى إلى جانب الأبعاد القيمية والجمالية فهناك البعد الصوفي حيث يقول في موطن آخر: "إن الهدف من هذه الأعمال الروائية، هو إخراج القارئ من ظلمة التيه والجهل والفهاهة إلى نور الوجد والعلم والكياسة، وإنشاء لغة نورانية، لأن الظلمة من عالم الفساد، والنور من عالم الصلاح، وقد علقت باللغة والكلمات ظلمانية كثيفة لآبد من إزاحتها بسطوة النور" (عبد الإله بن عرفة، 2010، صفحة 9).

وقريب من هذا المعنى قول ابن عربي: "ألا ترى أن الحقّ تسمى بالنور ولم يتسم بالظلمة إذ كان النور وجوداً والظلمة عدماً وإذ كان النور لا تغالبه الظلمة بل النور الغالب كذلك الحق لا يغالبه الخلق بل الحق الغالب فسّمى نفسه نوراً" (بن عربي م، دت، صفحة 141).

إذا تستمدّ الكتابة السردية كيانها من اللغة العرفانية المنبثقة عن النور؛ لأنها لغة تبدد الظلمة والجهل وتهذب سلوك القارئ وتحمله إلى عوالم من الكشف والمعرفة، في ضوء ما سبق يلحق عبد الإله بن عرفة الكتابة السردية بما هو صوفي أو عرفاني، وتنمأه لديه الكتابة السردية بالتجربة السلوكية، ويغدو أدب الحضور وسيلة من وسائل تحقيق الوجود وبلوغ الكمال الذي تنشده مختلف الطرق الصوفية وراهن عليه أنمة العرفان والعشق الإلهي، فالكاتب يتغيا من خلال هذه التجربة السردية

الجديدة نقل التجربة العرفانية المغمورة في كتب التراث وإخراجها إلى النور؛ لجعلها ثقافة يتمثلها المجتمع ويستخرج منها العبر بوصفها تجربة سلوكية ناجحة لأنها مستمدة أساسا من القرآن والسنة بوصفها تتضمن فكرا وحلا لأزمات تعصف بالمجتمع الإنساني، وتهدف هذه التجربة إلى تحقيق إنسانية الإنسان وحضوره وإعادته إلى الوجود بعدما غيبت الفلسفات الغربية فيما عرف بنسيان الوجود.

أما وسيلته في ذلك فقد تجسدت في هذا الأدب وهي مداومة الذكر، حتى تتكثف له الحجب، ويتلقى المواهب الربانية، فيغيب عن كل ما سواه لتتجلى الكتابة في أسمى معانيها وأجلّ غاياتها لأنها تنهض "على المحبة والإيثار، ولا محبة ولا إيثار إلا بالمعرفة الحقّة ومحلّها القلب" (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 8).

### 3. المرجعية العقدية في الرواية العرفانية:

لقد أصبح التصوّف يشكّل أحد منابع التراثية التي تغني التجربة الإنسانية في عصرنا الحاضر برؤى مختلفة وبرموز مثيرة، كثيرا ما يستغلها الأدباء في إثراء تجاربهم الإبداعية خاصة أنّ التجربة الصوفية متعدّدة الدلالة قابلة للتأويل، وتوحي العودة للتراث الصوفي في الأدب بجديّة التجربة وتفردّها وارتباط صاحبها بأصالته الثقافيّة " (رواق، 2020، الصفحات 226-227).

وقد أكّد عبد الإله بن عرفة في بياناته التي صدر بها رواياته أنّ مرجعية الرواية العرفانية مستمدة من القرآن الكريم، وهو ينحو في ذلك منحى كبار المتصوّفة الذين أكّدوا أنّ القرآن الكريم هو الزاد الذي يجب على الإنسان أن يتزوّد به، فيأتمر بأوامره وينتهي بناهيه: وهذا ما أكّده النورسي في كتابه رسائل النور حين قال: إنّ جميع أهل الاختصاص والشهود وأهل الدوق والكنف من العلماء المدقّقين والأولياء الصالحين متفقون على أنّ زاد طريق أبد الأباد، وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة ونورها وبراقها ليس إلا امتثال أوامر القرآن الكريم واجتنب نواهيه" (النورسي، 2011، صفحة 30)، نفهم من هذا أنّ الصوفية لما أدركوا أنّ القرآن الكريم قد انطوى على كلّ العلم الذي في هذا الكون وحقائقه، وأيقنوا أنّ التمسك بحبله هو طريق النجاة وجّهوا إليه كلّ مريد رغب في سلوك الطريقة، وما استحضار الرواية موضوع مقاربتنا لآيات من القرآن الكريم وتوظيفها لحرّوه الثورانية إلا رسالة من الكاتب بضرورة تشبّث الأمة بحبل القرآن حتى تنجو بذلك من التشبّث والحيرة، إذا لقد أصلّ الروائي لكتابة سردية انفكّ فيها من إسار الرواية الغربية على صعيد الشكل والمضمون، وانفتح على مصدر مهمّ ورافد أصيل قامت على أساسه الحضارة الإسلامية وهو القرآن الكريم في ضوء فهم وتأويل الخطاب الصوفي له .

وقد تجلّت المرجعية القرآنية من خلال عنوان الرواية وبعض العتبات الداخلية، واستحضار آيات قرآنية في بعض الحوارات بين شخصياتها، كما كانت السنة النبويّة إحدى أهمّ المرجعيات التي أنبنى على أساسها هذا المشروع الروائي حيث استشهد الروائي بالكثير من الأحاديث النبوية وذكر الرسول صلّى الله عليه وسلّم في عدّة مواطن من الرواية واستحضر حادثة الإسراء والمعراج لتبرير بعض الكرامات الصوفية من تواجد شخصية الشيخ العارف في موضعين مختلفين، وهذا ما ساقه على لسان الشيخ ظافر المدني: "قد كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أخبر قومه وأصحابه بأشياء من عالم الشهادة، كما أخبر عمّا صادفه في الإسراء والمعراج بدون مفارقة لكلا العالمين . (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 152) ويفيد هذا أنّ "تأصيل كيان الرواية لا يتمّ في نظر الروائي إلا في ضوء تأصيل كيان الحضارة عبر استعادة روافدها والاشتغال عليها بأفق التخلّص من إسار النّمودج في الرواية العربية، والاعتناق من قيود الرواية الغربية في مختلف تشكّلاتها الجمالية . " (بن جمعة، 1999، صفحة 498).

هذا وتتكى الرواية على خلفية عرفانية أعلن عنها الكاتب في بيانه الذي صدر به الرواية مستشهدا بقول الشيخ علي الجمل: "أعلم أنّه ممّا منّ الله عليّ في ابتدائي أنّ تفضّل عليّ بالذكر، ثمّ استخرج لي من الذكر الحضور، ثمّ استخرج لي من الحضور العلم، ثمّ استخرج لي من العلم الغيبة عمّا سوى الله، ثمّ استخرج لي من الغيبة عمّا سوى الله المعرفة بالله" (بن

عرفة ياسين ، 2013، صفحة 7)، تتأسس إذن الرواية العرفانية على هذه المرجعية من العلم اللذني الذي يتأتى مع دوام الذكر وقراءة الأوراد، أما العتبة الأولى للرواية فهذه الأبيات لابن عربي إذا كنت قرأنا فقلبك ياسين وإن كنت فرقانا فمالك من قلب

فإن وجود الحق في قلب عبده ومالك من قلب فمالك من قلب (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 19).  
من هنا أمكن القول أن رواية ياسين قلب الخلافة نص منفتح على التجربة الصوفية "يعيد طرح قضايا سابقة وقعت في مجرى التاريخ الجمالي، وبخاصة تلك القضايا الملحة التي لاتزال ماثلة أمامنا تخاطب الوجدان والمعرفة والمخيال" (الوراري، دت، صفحة 12)، وهي قضايا وثيقة الصلة بمفهوم الخلافة والأمة وما ألم بها من مؤامرات، نجم عنها اغتصاب أرض فلسطين وأدت إلى انقسامات وهزائم ماتزال نتائجها الأليمة إلى اليوم، فهو نص ذو معالم جمالية عرفانية يستوعب الماضي ويستجيب لمسوغات العصر ويستشرف المستقبل .

#### 4. مقام الخلافة /مقام الأنوار:

إن ياسين؛ هي قلب الخلافة، والخليفة هو قلب الوجود بحسب الطرح الروائي، وعلى الخلافة مدار الحكى، بل هي الفكرة المركزية في النص، يقول صاحب الرواية في بيانه الذي صدر به روايته: "لاشك أن لكل شيء قلبا، وقلب الوجود هو الإنسان الخليفة، وتلك هي القضية الكبرى لهذا المشروع الروائي الذي نهض به" (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 9)، ويسعى الروائي إلى تأكيد استمرارية الخلافة والولاية في أمتنا، ورفض فكرة القطيعة مع التاريخ التي سعت الدول الكولونيالية إلى نشر هذه الفكرة وترسيخها، يقول الروائي: "لقد سبق أن عرّجت على قضية الخلافة في أعمالى السابقة، وخاصة في روايتى "جبل قاف" و"طواسين الغزالي"، لكنى اليوم أتناولها من زاوية مختلفة للتأكيد على استمرارية هذه الأمة في التاريخ بدون انقطاع، مخالفا بذلك كل المحاولات الاستعمارية والتغريبية لترسيخ وهم الانقطاع عند بعض النخب السياسية والفكرية في بلداننا" (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 14).

وقد ألحق الكاتب " الخلافة" في هذا العمل السردى بفتوحات الفيض الإلهي، وهذا الطرح يعيد صوغ مفهوم الإنسان الخليفة والخلافة وفق الرؤيا العرفانية، مؤكدا أن خلافة الإنسان في الأرض إنما هي تحقيق العبادة في صفاتها، لأنها ميراث النبوة وبيضة المسلمين، ولا تليق إلا بمن تحققت فيه صفات الأنبياء وتخلق بأخلاقهم، من زهد في الدنيا وتعلق بالآخرة وأتباع طريق التدبير... إلخ، جاء في الرواية: "إن الإمامة العظمى، وخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكون في الخليفة إلا إذا تخلق بسر الاسم المفرد" (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 134)، فالرواية إذن نتهت إلى أن سورة ياسين هي الورد الحافظ للخلافة، وأما حارسها فهو الخليفة الذي جسّدته شخصية عبد الحميد الثاني السلطان العثماني الذي حمى الخلافة وقاوم أعداءها في الخارج والداخل، حيث جاء في الرواية أنه خصّ بهذه السورة فتأمل ما فيها من أسرار وامتنل لتعاليمها، واتخذها وردا بعدما أرشده إليها شيخه ظافر المدني، قال : قضيت ليلتي في ضيافة سورة ياسين أقلبها ذات اليمين وذات الشمال، أتفياً في ظلالها، وأنعم بجنانها، كانت ياسين قلب القرآن وكذلك الإنسان الخليفة قلب قرآني أحدي جمعي، وقلب فرقان لتوارد التجليات. عليه (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 333)، فالإنسان الخليفة بحسب هذا القول متخلق بأخلاق القرآن الكريم، أما قلبه الياسيني فثابت على الحق، ومن المعروف أن القلب عند الصوفية هو محلّ الوحي، مستشهدين بما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات موجهة لوصف حالة النبي عليه السلام في قوله تعالى في سورة الشعراء: "وإنه لتنزيل من رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين" (الشعراء 194، 192)، ويعدّ القلب مفهوما ذا أهمية قصوى عند الصوفية، فهو الحقيقة الأعمق في الكيان الإنساني، وفي عرفهم أن الذين نجحوا في جلي مرايا قلوبهم هم الأنبياء وأولياء الله الذين يمكن تسميتهم "أولي الألباب" هؤلاء الأشخاص هم المتحققون الذين يعيشون حضور الله بأعمق مستوياته، كما ورد في الحديث القدسي: "ما وسعني لا سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن" (لطيف، 2021، صفحة 167)،

ولأنّ القلب هو محلّ الوحي -كما أسلفنا- وهو الكيان الذي يمكن تأمل الله فيه، وياسين هي قلب القرآن، وفي ضوء هذه المعطيات تأول الصّوفية مفهوم الخليفة وعدّوه هو قلب الخلافة وحارس بيضة المسلمين لأنّ الخليفة هو محلّ المعارف الرّبانية، وقد لخصّ العنوان مجمل الدلالات التي انطوى عليها المتن حيث جسّدت شخصية السّلطان عبد الحميد الثّاني قلب الخلافة، والغوث الذي أنقذ الأمّة من أخطار تهديداتها، بعد أن تحقّقت فيه صفات الإمام القطب، فقد تسلّم الخلافة وقلبه وإخلاصه للأمّة لا يضاهاه، واتّخذ القرآن مرجعيته وحارب التّفادي واستجاب لشروط المرحلة، في ضوء معطيات السياقات الحضارية التي كان يتحرّك فيها وما كان يتهدّد الخلافة من خطر الماسونية وتربّص الغرب الكولونيالي بالأمّة الإسلامية، عدا عن الخطر الداخلي المتمثّل في بعض المنظّمات الطّامحة إلى الحكم والمتمّارة مع الغرب، كما أظهرت الرّواية كيف كان السّلطان عبد الحميد يردّد دائما عبر مفاصلها أنّه خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المسلمين، وأنّه سيلتزم بهذا الأمر طوال حياته، وهذا ما أهله أن يكون خليفة على المسلمين وقلب الخلافة النّابض وحامي ميراث النّبوة. ففي مشهد سبق تنصيبه خليفة للمسلمين تصوّر الرّواية زيارته لآثار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم المحفوظة في قصر " طوب كابو"، وهناك يصف السّلطان وصفا دقيقا هذه الآثار المحفوظة في صناديق ذهبية، وينقل لنا ما انتابه من خشوع ملائكي لما رأى هذه الآثار التي لمستها يد النبي الكريمة، وهي لواؤه ونعله وسيفه وخصلة من شعره، يقول السّلطان: "ورأيتني أقتفي الأثر على نفس طريق الصّدق بالاتباع لا بالابتداع، فتلوت قوله تعالى: "وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم" (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 187)، حيث تمثّل السّلطان المعنى القدسي لهذه الآثار واستشعر الصّلة الرّوحية التي تربط المسلمين بالنبيّ محمّد صلى الله عليه وسلّم، مؤكّدا بأنّ دوره هو استكمال لرسالة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأنّ خلافته مرتبطة بأفق الرّسالة المحمّدية، وبعد هذا المشهد المهيّب يتقدّم شيخه قائلا: خذ سيف الخلافة بيدك يا سيّدي، ثمّ حمل لواء رسول الله بيدك، والزم قدم الصّدق بحنو النّعل حذو النّعل، فأنت اليوم خليفة رسول الله المتحقّق بالولاية الظّاهرة والباطنة" (بن عرفة ياسين ، 2013، الصفحات 187-188)، وهذا يتوافق تماما مع النّظرة الصّوفية للرّسول صلّى الله عليه وسلّم فهو قبة الوجود كلّه ولأجله أوجد الله هذا الكون، إذ يتخذ الصّوفية من حادثة المعراج دليلا على إمكانية تحقّق قرب الولي من الذات الإلهية. أمّا بالنسبة للرّواية فإنّ الشّيخ يرشد الخليفة بأنّه مكفّ باتّباع سنّته وانتهاج طريقتة والمرور بجميع المواقف والأحوال التي مرّ بها، بصفته إنسانا متميّزا ومتقرّدا حاملا لسرّ الولاية ومتّصفا بصفاته.

يقول الخليفة: كان كلام الشّيخ ينساب في فكّ شيفرة الأشياء بسطوة النّور، وزاد إدراكي للأشياء، وعابنتها في شفافيّتها ثمّ في كثافتها فنظرت بالعينين وسلّطت سهام الحدقتين على حقائقها، كانت الخلافة قلب العالم، وجزيرة الشّمال قلب التّدجيل، وكنا في الهزيع الأخير من سيادة ليل الخلافة لكن لمحة النّور النّابضة من القلب المحمّدي كانت تشعّ على قلب الخلافة ألوية المحامد، فأدركت أنّ الله استعملني في نهاية دورة الخلافة حتّى أحفظ الأمانة، كان الشّوق يحذوني والرّغبة تقودني إلى أن أسمع كلام الشّيخ حول القلب المحمّدي النّابض بالحياة في قلب الخلافة القائمة بسرّ قلب القرآن، بعد أن سمعت منه كلّ ما ينبغي عن قلب التّدجيل " (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 164).

ينفتح النصّ على تأويلات شتى وي طرح عدّة تساؤلات حول وجوب إمكانية إيجاد حلقة وصل بين الذاكرة الجمعية للمسلمين وحاضرهم، ومدى تأثير هذه الذاكرة فيما نعيشه اليوم وهل يمكن أن يكون الماضي نقطة ارتكاز لاستشراف مستقبل الأمّة؟ إنّ الأمّة بحسب الطّرح الصّوفي تحتاج إلى خليفة لا بدّ أن يتسم بصفات وسمات خاصّة تؤهّله لحمل الأمانة ويحفظ للخلافة كنهها ويكون هو قلبها النّابض، فيستحقّ بذلك لقب الإمام المبين، وهذه الصّفات تتحقّق -بحسب الرّؤية السردية- إذا كان إيمانه خالصا عميقا سائرا على نهج النبي صلّى الله عليه وسلّم، ولا يبقى همّه مقصورا على الدّنيا بل لا بدّ أن يتجافى عنها وينسلخ عن النّفس (شهوات) وعمّا هو دنيوي ويتطلّع إلى ما هو روحاني علوي ليحقّق القرب من الله عن طريق الخلافة ذاتها ويحقّق الكمال الذي ينشده وبالتالي يتحقّق القصد من وجوده، وبالعودة إلى التّراث الصّوفي الذي انفتحت عليه الرّواية

يتبدى لنا أنّ الخلافة تتحقّق في القطب أو قطب الأقطاب وهو الغوث وهذا ما أورده ابن عربي في التّديبات الإلهية من صفات الخليفة التي تحقّقت في الأنبياء عليهم السّلام من كمال الأوصاف، واختفت عموماً وقال بإمكانية تحقّقها استثناء فيما أسماه ا لمتصوّفة بالقطب، أو الغوث وهو الإمام المبين، وفي عرفهم أنه يبعث الله في كلّ مائة عام رجل تتحقّق فيه هذه الصّفات ويرث الإمامة ويكون منقذاً للناس من الضلال يقول ابن عربي : فرأينا ذلك في حضرة الأمر والنّهي وحضرة الإمامة ومقرّ الخلافة، فوجدنا الخليفة شاهداً، فيه ظهرت الحكمة وأثر الأسماء وعلى يديه تنفعل أكثر المكونات للباري تعالى، فتخصّصنا الأثر وأمعنا النّظر في حظّ الإنسان من هذه الحضرة الإمامية، فوجدنا في الإنسان خليفة ووزيراً وقاضياً... إلى أمثال هذا ممّا يليق بحضرة الخلافة التي هي محلّ الإرث وفي الأنبياء انتشرت راياتها ولاحت علامتها وأذن الكّل لسלטانها، ثمّ خفت بعد الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، فلا تظهر أبداً إلى يوم القيامة عموماً، لكن قد تظهر خصوصاً، فالقطب معلوم غير معيّن وهو خليفة الرّمان .....وله صفات إن اجتمعت في خليفة عصر، فهو القطب، وعليه مدار الأمر الإلهي، وإن لم تجتمع فهو غيره (بن عربي م.، 2015، صفحة 78)، ولا يكون الخليفة خليفة إلا إذا تحقّقت فيه صفات وأسرار استوجبت الإمامة، ويقول ابن عربي : "فقلنا هي من نفسه (أي الصّفات) أو من غيره؟ فوجدناها أمانة بيده، فقرأنا : "إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها " (بن عربي م.، 2015، صفحة 97)، إنّ هذه النّظرة الصّوفية لدور الخليفة ومهمّته المقدّسة في الحفاظ على وحدة المسلمين جسّدتها الرّواية في عدّة مواضع وظهرت من خلال استرجاع شخصية الخليفة عبد الحميد الثّاني وسرده لتفاصيل تولّيه الولاية ورأيه في تلك الأحداث والسيّاقات التّاريخية التي صاحبت البيعة فيها من ذلك قوله : "فلاكن في رحمة الله بين أصابع الرّحمان، وليقلّني كيف شاء، متى ما شاء (وهو الولي الحميد)، لا أملك إلا أن أردّد المحامد القلبية ليقبى سرّ الخلافة العلية مستمراً حتّى يأذن الله بنهاية دورتها، كان عمري ثلاث وثلاثين سنة وزيادة، وفي هذا السنّ سرّ إلهي يعلمه أهل الذّكر والفكر... أرجو أن يناظر سنّ عمري اليوم مدّة خلافتي حذوا بحذو، فتكتمل دورة القلب المحمّدي بذكر الاسم المفرد :الله ولا قيام للخلافة بدون هذا، والخليفة الحقّ هو من كان لاهجا بذكر الحقّ " (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 132).

لقد تماهت الرّؤيا العرفانية مع الرّؤيا السّردية وانصهرتا في بوتقة واحدة لتتكشّف لنا الخلافة رسالة من نور تصل الحاضر بالماضي فهي إرث النبوّة، وتصل الأرض بالسّماء لما انطوت عليه من قدسية موصولة برسالة الإسلام التي لن تتوقّف أبداً، إنّ الخلافة بعيدة عن مفهوم اعتلاء مراتب الحكم من أجل الجاه أو السّلطة، بل هي أمانة يؤدّيها الخليفة أو الغوث الذي اختصّ بسرّها الكبير وتمت له صفات وأسرار تفرّد بها تمكّنه من أداء مهمّته اتّجاه الأمة ومسؤوليته المقدّسة أمام الله.

### 5.مقام المرید والشیخ:

لقد استحضر عبد الإله بن عرفة العديد من الشّخصيات الصّوفية المعروفة مثل شخصية الشّيخ محمّد ظافر المدني مرّبي الخليفة عبد الحميد الثّاني وشيخه، كما استحضر والده الشّيخ محمّد حسين بن ظافر المدني، وكذا الأمير عبد القادر الجزائري وشيخه محمّد بن مسعود الفاسي، وشيخهم جميعاً الشّيخ العربي الدّرقاوي، وينشد ابن عرفة من وراء هذا الاستحضار التّأكيد على تعلق الخلافة أو الإمامة العظمى بالولاية، وأنّ الطّريقة الدّرقاوية قد حافظت على الولاية، عدا عن التّعريف بكبار الشّخصيات التي عرفها العالم الإسلامي. وقد تواضع الصّوفية على ضرورة اتّخاذ المرید والرّاغب في القرب من الله شيخاً مرشداً يرشده إلى الطّريق، وقد وضع المتصوّفة شروطاً خاصّة بالمرید من بينها أنّه لا بدّ من أن يكون للسّالك رغبة في لبس الخرقة وترك الدّنيا والزّهد فيها، كما لا بدّ من الامتثال التام لأوامر الشّيخ والانتهاج بنواهي.

لقد نقلت لنا الرّواية مشاهد كثيرة وحوارات بين الشّخصيات، تظهر هذا العرف وتبيّن مدى أهمّيته في الحفاظ على الخلافة، إيداناً من الرّواية بالدور المهمّ الذي أدّته الصّوفية عامّة والطّريقة الدّرقاوية بصفة خاصّة في الحفاظ على وحدة المسلمين وميراث النبوة المتمثّل في الخلافة، من بين هذه الحوارات ما يتعلّق بالحركات التّعريبيّة التي تنهّد الخلافة بعدما أفل نجمها في الأندلس، وكذا تنويه الرّواية بدور الطّريقة الدّرقاوية في الحفاظ على سرّ الولاية وحرصهم على الحفاظ على

الخلافة والوقوف في وجه أعدائها، وهو حوار افتتحت به الرواية بين الشيخ محمد العربي الدرقاوي شيخ الطريقة الدرقاوية وتلميذه الشيخ محمد بن ظافر المدني، يقول الشيخ الدرقاوي: "...وإننا في هذا الصّقع من العالم الإسلامي قد وقفنا ضدّ كلّ مظاهر هذا التّنجيل ووقفنا سدًا منيعًا أمام نفوذه إلى بلاد الإسلام، لكنّهم قادمون لامحالة، والخلافة الإسلامية مهدّدة بحلف التّدجيل الذي يقتطع منها شيئًا فشيئًا حتّى لا يبقى إلّا على أشلاء ممزّقة، وأمام هذا الأمر، لا بدّ لدوائر الولاية والصّلاح أن تقف أمام هذا المدّ التّنجيلي المادّي، وقد آن الأوان يا صاحبي أن ننقل سرّ الدّلالة على الله إلى قلب الخلافة الإسلامية حتّى يبقى السرّ رغم موجة سونامي القادمة" (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 24).

كما برز هذا الدّور من خلال الحوار الذي أجراه الرّوائي بين شخصية الأمير عبد القادر الجزائري الذي قدم إلى اسطنبول وشخصية عبد الحميد الثّاني قبل أن يتولّى الخلافة، هذا الأخير الذي أهداه الأمير نسخة من الفتوحات المكيّة لابن عربي وأخبره أنّه سيكون خليفة للمسلمين بحسب الإشرافات التي ألهمها في خلوته بمكّة واقترح عليه مشروع الجامعة الإسلامية وحذّره من الماسونية وخطرها على بلاد المسلمين يقول الأمير عبد القادر في الرواية: "...قد اختارك الله لأن تتولّى أمور الخلافة كما ألهمني بذلك الحقّ في غار حراء... ونصيحتي لك أن تحافظ على الجامعة الإسلامية التي تحفظ للمسلمين دّمّتهم ولحمّتهم" (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 49)، والتمتّع في الصّورة الكليّة التي استحضرت بها الرّوائي شخصية الأمير عبد القادر الجزائري ثمّ إجراء الحوار بينه وبين شخصية عبد الحميد الثّاني يفيها صورة مشرّفة جدّا وتحمل عدّة دلالات، فقد قام بتبرئة الأمير عبد القادر من تهمة الماسونية التي حاول البعض إلصاقه بها لأغراض شرحها الرّوائي بالتّفصيل، بعدها سلّط الكاتب الضّوء على جانب مهمّ من شخصية الأمير وهو الجانب الصّوفي لاسيما وأنّه تلقّى الطّريقة الدرقاوية وأصبح أحد شيوخها، ولقاؤه بالخليفة المرتقب تأكيد من الرّوائي على هذا الارتباط الوثيق بين الخلافة والطّريقة الدرقاوية وأهميّة ذلك في الحفاظ على وحدة المسلمين، ويتجسّد في هذا الحوار مساندة الصّوفية للخليفة للتعلّب على أعدائه :

قلت (أي السلطان عبد الحميد): يجب أن تقوم دولة الخلافة على فكرة جيّدة تجمع الأُمّة، وأرجو أن تساعدني على ذلك.

فقال الشيخ: ليس هناك أفضل من فكرة جمع الأُمّة يا مولاي على التّوحيد.

فقلت: وكيف نسّمّي ذلك؟

فقال الشيخ: نسّمّي هذا الهدف الكبير "الجامعة الإسلامية"

فقلت: فكرة سديدة يا شيخ ظافر أفندي... فنحن في أمسّ الحاجة إلى هذه الفكرة النّاصعة. (بن عرفة ياسين ، 2013،

صفحة 146)

ثمّ اقترح الشيخ ظافر، طريقة مثلى لإقامة هذا المشروع الجديد عن طريق خطباء المساجد وعلماء ومفكرّي الأُمّة من أمثال الأمير عبد القادر الجزائري والشيخ جمال الدّين الأفغاني، ويسعى الكاتب من وراء استحضار هذه الشّخصيات إلى التّذكير بدورهم في الوقوف ضدّ القوميين الذين انصاعوا لدعوة الغرب من أجل تفكيك الأُمّة، وكذا التّهضة الحضارية التي قام بها أمثال هؤلاء المفكرين في البناء. وإذا كان مرمى التّصوّف " طهارة القلب والتّوبة إلى الله ومحبة المخلوقات" (خفاجي، دت، صفحة 19) فإنّ شخصية ابن ظافر المدني في الرواية قد شكّلت الملاذ الآمن للخليفة الذي أعانه في تبديد ظلمات الإلحاد والتّغريب ليؤكّد الطّرح الذي راهنت عليه الرواية من دور الطّريقة الدرقاوية في الحفاظ على بيبضة الإسلام من خلال مرافقة السلطان وإرشاده إلى اتّباع طريق الحقّ وترك الدّنيا حتّى يظفر بعلم الوهب والسرّ الأعظم والكبريت الأحمر بلغة أهل العرفان- من ثمّ يتحقّق قربه من الحقّ ويؤدّي الأمانة .

## 6. اللّغة وأسرار الحرف في الرواية العرفانية:

إن من أهم خصائص الرواية العرفانية هو اعتمادها على لغة رمزية تحيل على "عالم شاسع ومثالي يعدّ العالم الواقعي بالنسبة له شبيها غير متكافئ، وهذا يتناسب مع غاية الصوفي من وراء تجربة الكتابة؛ التي هي استعادة لحظة الكشف ولحظة الغيبة عن الواقع والقرب من الذات العليّة، إذ أنّ "الرمز السردّي يغدو حالة باطنية معقّدة من أحوال النفس وموقفا عاطفيا أو وجدانيا " (الحجري، 2015، صفحة 22)، وقد قال ابن عربي في معرفة أقطاب الرموز وتلوحيات أسرارهم:

ألا إنّ الرموز دليل صدق على المعنى المغيب في الفؤاد (عربي، 1974، صفحة 196)

ولجوء الصوفية إلى الرمز يرجع بصفة عامّة إلى سببين:

الأول أنّ كثيرا من نزعاتهم يخالف ظاهر الشريعة، فلا يمكن الإفصاح عنها خوفا من سلطان الفقهاء الذين كانوا يتتبعون الصوفية في كلّ عصر بالتكبير والتشهير، ويحاولون الزجّ بهم في محاكمات تنتهي في بعض الأحيان بقتلهم. والثاني أنّ اللغة العادية تقصر عن أداء كلّ ما عندهم من معانٍ لأنّها معانٍ تقوم على الدّوق أكثر ممّا تقوم على المنطق" (حسان، 1954، صفحة 80).

وقد وظّف الكاتب في الرواية اللغة الصوفية بكلّ حمولاتها ودلالاتها الروحية، وعكست تجربة التصوّف التي عاشها الخليفة العثماني والتي برزت من خلال لغة الحوار الذي جرى بين شخصية السلطان عبد الحميد الثاني مع مرّبيه ومرشده الروحي الشيخ ظافر المدني، كما حاكت الرواية أخبار كبار المتصوّفة وكراماتهم ورموزهم، ومن بين الرموز الصوفية التي حدّثت عنها الرواية ضمن خطاب الكرامة؛ رمز الحيّة وجبل قاف وزمردة خضراء، وهي رموز جاءت في خطاب عرفاني يقوم على التخييل، من خلال نقل مشاهد حدثت للسلطان في خلوته قبل أن ينصبّ كخليفة على المسلمين وهو بين عالم الحسّ والمعنى بين الحضور والغيبة يقول...: وفجأة رأيت جبلا انتشع عن عماء، ما فوقه سحاب وما تحته سحاب... ورأيت حيّة عظيمة تطوّقه، سلّمت عليها فردّت عليّ السلام، واقتربت من قلبي فعابنت صفاءه كالمرآة المجلّوة، تبعنتي كلّ تلك الخلائق إلى سفح الجبل تبايعني، لمّا رأيت الحيّة العظيمة التي تطوّق الجبل قد أقبلت عليّ تلاطفني، وترحّب بي... سمعت أحد الأرواح يتلو سورة يس، إلى أن وصل إلى قوله تعالى: سلام قولا من ربّ رحيم" فالتفت إليّ وقال أنت اليوم عين الرّحمة في المرتبة فاحمل هذا القلب ثلاثا وثلاثين سنة " (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 184).

إنّ هذا المشهد السردّي بما اكتنفه من تخييل عرفاني ينطوي على رموز لا يفقهها إلا العارفون، ولكنّ الكاتب قدّم شرحا مستفيضا لهذه الرموز وبدّد ما استشكل فهمه على القارئ، فالحيّة تفهم من لفظها وتعني الحياة، وأمّا أنّها تطوّق الجبل ورأسها إلى ذنبها فهي إشارة إلى ديمومة الحياة، أمّا الزمردة الخضراء التي كانت على رأس الجبل فإنّ اللون الأخضر بحسب الرواية مرتبط بالحياة، "وما سمّي سيّدنا الخضر بهذا الاسم إلّا لأنّه شرب من ماء الحياة، ولون الزمردة هو الذي يعطي للسماء زرقتها وللأرض خضرتها" (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 156) ويسهم السرد في تفسير وشرح الخطابات والنصوص الصوفية المستدعية ليتمكّن المتلقّي من فهم هذه الرموز الموظّفة.

كما ورد ذكر سورة "يس" في هذا المقطع السردّي، وهي من السور التي تبتدئ بالحروف المقطّعة، والجدير بالذكر أنّ "فواتح السور في القرآن الكريم (ألم، أئر، حم، طسم..) ممّا ليس له نظير في أيّ نصّ أدبي أو ديني في اللغة العربية لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وقد أثارت هذه الفواتح نقاشا طويلا بين المفسرين والباحثين حول حقيقتها، والمقصود بها لم ينته بعد إلى نتيجة " (حسان، 1954، صفحة 80). وقد اجتهد الصوفية لمعرفة حقيقتها ولهذه الحروف دلالة مخصوصة عند السالكين، حيث يرى ابن عربي أنّ الحروف أمة مثل باقي الأمم ولها حياة كباقي الكائنات، ويسمّي العلم بها "علم الأولياء" لأنّه لا يعرف حقيقة هذه الحروف إلّا أهل الصّور المعقولة بل إنّ معرفتهم لها من شروط إكمالهم سرّ الإيمان يقول: "لا يكمل عبد أسرار الإيمان حتّى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها " (عربي، 1974، صفحة 24)

ولابن عربي قصيدة في معرفة الحروف ومراتبها، ومطلعها:

شهدت بذلك ألسن الحفّاط (عربي، 1974، صفحة 20) إنّ الحروف أئمّة الألفاظ

لقد اتّخذ الكاتب هذه الحروف المقطّعة عنواناً لمشروعه الرّوائي، يقول: ونحن نبتدئ هذه الكتابة بالنّور من أصغر جزء في اللّغة وهو الحرف لنشيد الكلمة والجملة والنّص، فحكم الأصل على الفرع، النّور ينحت جميع الكلمات الكثيفة فيلطفها " (عبد الإله بن عرفة، 2010، صفحة 8)، وقد جاءت عتبة الرّواية هي الآية الأولى من سورة يس، وجاء في الحديث النبوي الشّريف: "إنّ لكلّ شيء قلباً، وقلب القرآن يس"، والرّوائي أضفى تحويراً على الحديث من "يس قلب القرآن" إلى "يس قلب الخلافة"، ولكنّ هذا التّحوير حمّال أوجه حيث تعدّدت دلالاته واحتمل الكثير من المعاني؛ منها أهمّيّة السّورة بالنّسبة لكلّ مسلم، مصداقاً لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "لوددت أنّها في قلب كلّ إنسان من أمّتي" وبالتالي ضرورة تنبيه القارئ إليها لإصلاح حاله وماله حتّى يحقّق القرب من الله. ولهذا أيضاً دلالاته المرتبطة بموضوع الرّواية الرّئيس، وهو سرّ الخلافة وأهمّيّتها بالنّسبة للأمة وبقائها، واتّخاذها ورداً حافظاً للخلافة، أمّا فيما يخصّ تعلق الخليفة بسورة ياسين واهتدائه في حكمه بما انطوت عليه من تعاليم، يتضمّن نقل تطلّعات الخليفة من العالم الأرضي الفاني إلى العالم العلوي المقدّس، وهو ما يعكس تطلّعات الكاتب المعلنة بين صفحات الرّواية وفي تصريحاته حول مشروعه السّردى .

قسّم الكاتب روايته إلى بابين سمّى الباب الأوّل كتاب الباء والثّاني كتاب السّين، ولهذا التّقسيم والتّسمية رمزية كبيرة في الرّواية ولها علاقة بسيرة الخليفة عبد الحميد الثّاني جاء في الرّواية: اعلم أيّها الأخ الإلهي أنّ للقلب مرتبتين: مرتبة الباء، ومرتبة السّين، فالمرتبة الأولى للقلب الملوكوتي الشمسي، وهو الحدّ البرزخي بين اليسار واليمين، أمّا المرتبة الثّانية فهي للقلب الرّباني الذي وسع الحقّ، وصاحبه هو الخليفة والعبد الكامل الذي له وجه إلى الحقّ، ووجه إلى الخلق، فمن أشهد هنتين المنزلتين القلبيتين فقد شهد نور المطّلع بطولوع نجم الكشف " (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 180) إذا يسهم الخطاب العرفاني في تشكيل لغة الرّواية، وتأنّيها، وتسهم الرّواية في فكّ أسرار هذا الخطاب وشرح مبهمات القارئ، وهذا المقطع السّردى دليل على توظيف الكاتب للحروف المتقطّعة بدلالاتها العرفانية، أمّا حرف الباء فيحيلنا على قلب الخليفة الملوكوتي وهو القلب الثابت على الحقّ، وعلامة ذلك حين أظهر عن عبد الحميد - قبل أن يتولّى الخلافة - ولاءه لعمّه السّلطان عبد العزيز، وسما بأخلاقه العالية عن الانسياق وراء إغراءات الإنجليز والماسونية وأعداء عمّه من الدّاخل وأظهر عبد الحميد موقفاً بطولياً وحاول إنقاذ الخلافة والأمة من هؤلاء المتربّسين بها، وحذّر عمّه السّلطان من مكائدهم، بعكس أخيه مراد باشا الذي استغلّته هذه الجهات واستعملته لعزل الخليفة ثمّ قتلتته تمهيداً للقضاء على الخلافة، وفي هذا الجزء من الرّواية سرد الكاتب سيرة عبد الحميد قبل تولّيه الخلافة وأظهر مواقفه وولائه وترقّعه عن المكائد التي كانت تحاك في (الحرملك)، لذلك كان حرف الباء برزخاً بين عالمين؛ عالم اليسار الذي ينحدر منه إلى أسفل سافلين، وعالم اليمين الذي ينطلق منه إلى أعلى عليين في مقارنة ظاهرة خفية بين شخصية عبد الحميد الثّاني والمناوئين للسّلطان مثل أخيه مراد، والصّدور الأعظم والوزير مدحت باشا، أمّا حرف السّين فقد اتّخذ الكاتب عنواناً للقسم الثّاني من الرّواية وهذا الحرف مقابل للقلب الرّباني (وفيه تتبّع سيرة الخليفة عبد الحميد الثّاني بعدما تولّيه الخلافة)، كما أظهر الخليفة عبد الحميد الثّاني شدة تعلقه بسورة يس؛ بوصفها الحصن الآمن والورد الحافظ لصاحبها وسراج المنير، لأنّها تنطوي على سرّ تجعل قلب الخليفة يتعلّق بالأخرة ويزهد في الدّنيا وهي التي تنير دربه وتقربّه من الحقّ، وبهذه السّورة تتكشف له المعاني الحقّة للخلافة بوصفها ولاية ورسالة ينهض بها الخليفة الذي تحقّقت فيه صفات الغوث أو القطب وتمّت فيه شروط الولاية حتّى أضاء سماء الخلافة وبدّد ظلام اليساريين وموجة الماسونيين، وأنقذ الأمة وتصدّى لأعدائها من الدّاخل والخارج طيلة فترة حكمه .

## 7. الرّواية العرفانية في الرواية:

لقد عالج الكاتب القضايا التي طرحها في الرواية من منظور صوفي، حيث هيمنت الرؤيا العرفانية على كامل النص من خلال توظيفه للمقامات والأحوال الصوفية، فقد ناقش الشيخ ظافر مع مريده السلطان عبد الحميد الكثير من الآراء الصوفية، والقضايا التي شغلت العارفين، كفضية التأويل وما تعلق بها من حقيقة ومجاز، وكذا قضية الظاهر والباطن، والحس والمعنى، والشهادة والغيب، والدوق والمشاهدة، وحقيقة العلم اللذني والسبيل إلى تحصيله، وكانت إجابات الشيخ ظافر شرحا مستفيضا للخطاب العرفاني عند كبار الصوفية وبتفصيل عني فيه بدقائق الأمور، ونقل أمين لمعانيه دون أن يخل ذلك بجماليات السرد، محققا انسجاما فريدا بين التخييل العرفاني والتشكيل الفني، ولنتمّن في هذا الحوار الذي جرى بين عبد الحميد الثاني وشيخه ظافر المدني: "ابتسم الشيخ قليلا وقال: أما علوم التجلي التي تنتفش في القلوب الصافية والنفوس النورانية فلم ينتفش أصلا في العالم، ولم يحصل للإنسان إلا من الوجه الذي هو لكل موجود مع موجد... وهذا العلم خارج عن قبضة اللوح والقلم، ولم ينتفش أو يسطر فيهما أو بهما، فقلت كيف السبيل إلى هذا العلم؟

فقال الشيخ: لا ينال هذا التجلي إلا بتفرغ خاطر القلب من علوم الفكر والنظر، ونسيان ما علم ومحو ما سطر وكتب، والجلوس على بساط الصفاء مع الحق تعالى مع تجريد الباطن من التعلق بما سوى الله، فإذا جلست فاجلس معه بدون علة ولا سبب، ولا تشرك في جلوسك وقتا ولا حاجة ولا شيئا مما سوى الله، فإن عيّنت زمانا أو مكانا أو صاحبة أو ولدا أو حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لم يحصل لك ما تريد لإشراكك مع الحق، وإن فتح لك مع التعيين بشيء، لا يأتي منه شيء كالريح العقيم (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 173).

إذن تعلم الخليفة من شيخه أنّ العلم اللذني لا يحصل إلا بتجرده من الدنيا وحوائجها، وتخليه عن كلّ الارتباطات الاجتماعية من صاحبة أو ولد والإقبال على الله لا رغبة ولا رهبة، وإنما تعظيما ومحبة ورغبة في القرب من الذات العلية حتى يتأتى له من الإشراقات والتجليات وتفتح له أبواب ذلك العلم بأسراره، على أنه لكل طالب علم سرّ خص به، وكان التجربة الصوفية هي تجربة مؤتلفة مختلفة، مؤتلفة في هدفها وطريق الوصول لكنها مختلفة في دقائقها وتفصيلها وكراماتها وأسرارها، لأن ما يحصل لكل سالك طريق هو مختلف عما يحصل لغيره من السالكين حتى ولو كان المطلوب واحد، والطريق واحد، فإن الأذواق متفرّدة والأسرار خاصّة.، ويغلب على الرواية مثل هكذا حوارات التي تستدعي الخطاب الصوفي، ولم يقتصر الأمر على لغة الحوار بل ظهر في كلّ المشاهد والمقاطع السردية إلا ما ندر، ففي لحظات الكشف التي حصلت للخليفة يبتهل بكلمات تترجم نهجه خلال إمامته للمسلمين تعبيراً عن التجليات الجالية التي تحققت للخليفة العثماني في نهاية دورة الخلافة فيزداد قربا من الله مع كلّ ابتلاء، ولسان حال الروائي يقول أنّ هذه التجليات هي بمثابة تمكين وتعويض عن شعوره بالعجز والمرض والإذلال الذي ألحقه به أعداء الخلافة وألقوه بالخلافة، لكنّه وعى مقام الاضطرار أو العبودية فازداد تواضعا وإذعانا وأظهر تجلداً وصبرا، يقول: "...أحمدك اللهم يامن افتتح بالسرّ العاطر الأحمدى في زمان الليل السرمدي أن تختتم بالنور الفاتح المحمدي في نهار العصر الأبدى كلّ ذرة من وجودي حتى تكتمل دورة الخلافة بالمحمد كلاً، بسرّ يس والقرآن الحكيم "اجعل قلوبنا لا تعرف وجهة سواك، ولا تنقلب منك إلا إليك..." (بن عرفة ياسين، 2013، صفحة 179).

في النص ما يشبه ضراعات الخواص، وهي إشراقات ملهمة للقلوب الضارعة المتبتلة وقريب منه قول المثنوي معبراً عن حبه الإلهي الذي يسمو على ما في الدنيا من جاه ورغبات: "يا من هو عزاء النفس في ساعة الغمّ والحزن، يامن فيه غناء الرّوح عند مرارة الفقر والعوز، يا من نحوه أولى وجهي في حياتي ووجودي، يامن هو أنيس فرحتي وسروري، لو أنني وهبت مالكا لا يبلي أو أنّ كنزا خفياً فتح لي يحوي كلّ ما في الوجود، لسجدت لك روحي ووضعت وجهي في الثرى، وصحت قائلاً: ليس لي مراد غير حبك، كلّ شيء يزول ويفنى ويذهب إلى العدم، ويبقى نور الحبّ خالدا سرمدياً" (خفاجي، دت، صفحة 67).

ترتبط خاتمة الرواية بعنوانها وعبئاتها، ففي نهاية دورة الخلافة عندما عزل السلطان من الخلافة تضرع إلى الله أن ينزل بالفاعلين شرّ نعمة ثم انسابت عبارات الأسي يتخللها أمل في عودة دورتها من جديد بلغة امتزجت فيها درامية السرد بالرؤيا العرفانية، يقول: إن لخليفة المسلمين حرمة كبيرة لا يدركها إلا من أدرك قيمة الشرع المحمدي، وعلم مواطن الشرف والحرمة فيه وإني أعلم اليوم قبل غد إخبارا من المولى، وإيمانا بعدله أنه سينتقم من هؤلاء الذين دنسوا الإمامة العظمى والخلافة الوسطى بعقائب السوء، لقد طمعوا في اجتثاث الخلافة ليكسروا وحدة المسلمين، لكن هيهات هيهات، إن التوحيد قائم في القلوب، ولئن عزلوا الخليفة اليوم، فإن الدورة ستستمر لا محالة، سنرى ملكا جبريا استبداديا ثم تأتي دورة الخلافة التي على منهاج النبوة" (بن عرفة ياسين ، 2013، صفحة 342).

في ضوء ما سبق نستنتج أن الكاتب تقصد استنطاق شخصياته بالخطاب العرفاني حتى يتم تقديم هذا الخطاب للقارئ وإحياء الفكر الصوفي وإشاعة ثقافته في المجتمع، وربطه بالقضية الأساسية في الرواية وهي قضية الخلافة والولاية وأهمية إعادة الوصل مع ذاكرتنا الجمعية والحفاظ عليها مما جعل الرؤيا الصوفية ولغتها المتفردة تتماهى مع الأبعاد الجمالية للسرد، وكأنا وجدت الرواية وقامت على هذا الأساس أو لهذا الغرض.

### 8. الخاتمة:

ختاما استطاع الروائي أن يقدم نوعا سرديا جديدا وأصيلا، يفتح على الخطاب العرفاني ويستعيد لغته ورؤيته وفق مقتضيات الكتابة الأدبية، منفكا في ذلك من أسر النموذج الغربي الذي هيمن على السرديات العربية ردحا من الزمن، وقد حقق الكاتب من خلال مشروعه الروائي عدة أهداف منها التعريف بالثقافة الصوفية وتقريبه للقارئ بطريقة فنية مؤثرة من خلال شرح مغلفاته وفك شفراته الرمزية فنقلتنا الرواية، كما أعاد وصلنا مع ذاكرتنا وموروثنا الحضاري، وطرح قضايا لا زالت ماثلة أمام الوجدان، خاصة قضية الخلافة والأمة الإسلامية، ورواية ياسين قلب الخلافة رواية امتزجت فيها الرؤية السردية بالرؤيا العرفانية بلغة متفردة لا تخلو من الترميز والاستعارة والصور البيانية، أما شخصياتها فهي شخصيات مهمة كشخصية عبد الحميد الثاني الذي أدى دورا مهما في الحفاظ على الخلافة الإسلامية وكان يتطلع للحفاظ على تماسك الأمة ودرء أعدائها من الخارج والداخل وشخصية شيخه ظافر المدني الذي كان له دور في مساندة الخليفة ودعمه في مشروع الجامعة الإسلامية عدا عن استحضار الكاتب الكثير من الشخصيات الصوفية والتاريخية المعروفة التي طافت بنا في عالم الفتوحات والتجليات الثورانية أما الحوار الذي دار بين الشخصيات فقد أسهم في تنامي لأحداث ونشر الوعي لدى القارئ بضرورة الانفتاح على التاريخ والموروث الحضاري.

### 9. قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم الحجري. (2015). الرواية العرفانية، مدخل لمعرفة قضايا النوع. مجلة نوات (10).
2. بديع الزمان سعيد النورسي. (2011). رسائل النور، الكلمات، ترجمة، ط6 (الإصدار الأول، المجلد 6). (إحسان قاسم الصالح، المترجمون) دار سوزلر للنشر.
3. بغداد بردادي، وقادة غروسي. (2022). مرجعيات تماهي الخطاب الصوفي في الرواية العرفانية قراءة تأويلية في ياسين قلب الخلافة لعبد الإله بن عرفة، مجلة الخطاب 17(1)
4. بوشوشة بن جمعة. (1999). اتجاهات الرواية في المغرب العربي (المجلد 1). بدون دار نشر.
5. جمال ذباح. (2020). الرواية العرفانية عند عبد الإله بن عرفة مشروعية الوجود. مجلة إشكالات في اللغة والأدب م، 3(4).

6. سليم عشو. (2021). السّير في الكتابة العرفانية الرّوائية عند عبد الإله بن عرفة. مجلّة اللّغة العربيّة، 23(1).
7. عامر لطيف. (2021). الرّومي والقرآن، القصص القرآني والتّأويل الصّوفي (المجلد 1). (علي السّعيد، المترجمون) كنز ناشرون.
8. عبد الإله بن عرفة. (2007). بلاد صاد (المجلد 1). بيروت: دار الآداب.
9. عبد الإله بن عرفة ياسين. (2013). قلب الخلافة (المجلد 1). بيروت: دار الآداب.
10. عبد الإله بن عرفة. (2010). الحواميم (المجلد 1). المركز الثّقافي العربي.
11. عبد الحكيم حسّان. (1954). التّصوّف في الشّعر العربي نشأته وتطوّره حتّى آخر القرن الثّالث الهجري (المجلد 1). القاهرة: مطبعة الرّسالة.
12. عبد اللّطيف الواردي. (2015). حوار مع الرّوائي عبد الإله بن عرفة. مجلّة ذوات (10).
13. عبد اللّطيف الواردي. (دت). الرّواية العرفانية، قضايا النّوع، الكتابة والتمخيل. مجلّة ذوات العدد (10)، صفحة 12.
14. عبد المنعم خفاجي. (دت). الأدب في الثّراث الصّوفي. القاهرة: دار غريب.
15. عثمان رواق. (2020). جماليات الرّواية الصّوفية في رواية سفر السّالكين لمحمّد مفلح، مجلّة قراءات، 1.
16. محمّد شقير العاملي. (2004). فلسفة العرفان (المجلد 1). دار الهادي للطّباعة والنّشر.
17. محي الدّين بن عربي. (2015). التّدبيرات الإلهية، تح: محمّد عبد الحيّ العدلوني. دار الثّقافة.
18. محي الدّين بن عربي. (1974). الفتوحات المكيّة، تح: عثمان يحي (الإصدار الثّالث). الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
19. محي الدّين بن عربي. (دت). الفتوحات المكيّة (الإصدار الأوّل). بيروت: دار الكتب العلميّة.
20. مؤيّد أحمد الشّريعة. (جانفي، 2022). خطاب العتبات في رواية ياسين قلب الخلافة لعبد الإله بن عرفة، مجلّة الخطاب، 1(17).